

الى الأستاذ توفيق الحكيم

## سياحة في نهر «الجنون»

هل هناك اقتباس...؟!

بقلم جورج وغريس

ليمذرى الأستاذ توفيق الحكيم إن أردت أن أقوم بسياحة قصيرة في «نهر الجنون» ذلك النهر الرهيب الذى شاء الأستاذ أن يتدفق ماؤه من قطرات قلبه على صحائف إحدى عشرة من «مجلى» الغراء فى العدد الرابع منها الصادر فى منتصف شهر يناير الماضى . والحق إنى لا أخشى أن أصاب بالجنون إن قمت بسياحة قصيرة فى ذلك النهر أو انهلت جرعة من مائه ، فليس أحب الى نفسى من أن ترشف من فيض ذلك القلم العذب الذى يذكرنا بصاحب «أهل الكهف» و«شهر زاد» و«عودة الروح» .. ونهر الجنون الذى خطر لى أن أكتب عنه هو عنوان لقصة تمثيلية طريفة من فصل واحد تناولها الأستاذ الحكيم فى حوار لطيف ، وتتلخص وقائع تلك القصة فى أنه فى قديم الزمان كان يجرى فى بلاد نائية نهر يشرب منه سكان تلك الجهة ، ففى إحدى الليالى تقمت الآلهة على ذلك النهر ، فأرسلت أفاعيها تهبط من السماء ثم تسكب سمومها فى مائه فاذا به فى لون الليل ، ويرى الملك كل ذلك فى رؤيا هائلة ، ويسمع من بهتف به : «حذار أن تشرب بعد الآن من نهر الجنون...» فيمتنع الملك هو ووزيره عن الشرب من ماء النهر ، ويكتفيان بتبديد الكروم فاذا بهما فى تمام قواهما العقلية ، أما الملكة وسائر أفراد الشعب فاتهم يهافتون على الماء ويستقون منه فيصيب عقولهم من الجنون

فاذا كان أول هذا الفصل يظهر الملك متفرداً مع وزيره فى القصر ، ويتحدث معه فى تلك الرؤيا الهائلة التى رآها ، ويبدى جزعه الشديد أن تشرب الملكة مع الشاربين من النهر برغم تحذيره إياها فيصيبها الجنون كما أصاب جميع الناس الذين شربوا

معه ، ثم يظهر حزنه العظيم على عقلها الراجح وذهنها اللامع فى سماء تلك الملكة ، ويتمنى لو أن وزيره أمكنه أن يجد لها الدواء الناجع ، أو لو أنه استطاع أن يحضر لها رأس الأطباء ، فيخبره وزيره أن رأس الأطباء أيضاً قد أصابه الجنون ، فيسأله أن يأتى لها بكبير الكهان ، فيعلم أنه أيضاً مجنون لأنه شرب مع الشاربين ، ولا يوجد فى الملكة من لم يشرب من ماء النهر سواها ، فيحزن الملك لذلك أشد الحزن ، ويذهب مع وزيره الى معبد القصر يسألان السماء القوث والرحمة ...

يخرج الملك والوزير من باب فتدخل من باب آخر الملكة ورأس الأطباء وكبير الكهان ، ويبدو الجزع على وجوههم ، ويتحدثون عن الملك ووزيره اللذين أصيبا بالجنون لامتناعهم عن الشرب من النهر دون جميع الناس ، وتسال الملكة رأس الأطباء وكبير الكهان أن يستخدموا الطب ويستزلا المعجزات لا تقاذ الملك من هذا الجنون المفرط . فلما يظهر كل منهما عجزه عن رده الى صوابه تحزن الملكة لذلك أشد الحزن وتشير عليهما ألا يذيعا الخبر لأن العصيبة سوف تكون فادحة لو علم الناس أن الملك والوزير قد مجتا . وتبكي الملكة زوجها الذى أصبح ممتوها لا يذكر النهر إلا فى فزع ، ويؤمن أن مائه مسموم ولا يشرب إلا نبيذ الكروم ، وبينما هى تدبر الرأى معهما تلح الملك آتياً عن بعد ، فتطلب منهما أن يتركاها منفردة معه ، لعلها تستطيع أن تقنعه بأن يشرب من ماء النهر ، ثم يقبل عليها الملك ، فيتفرد كل منهما فى صاحبه وفى قلب كل منهما إشفاق على الآخر لما أصابه من الجنون ، فتسأله الملكة عن السر فى هذه النظرات العميقة ، فيجيبها أنه يسأل السماء أن تستجيب دعائه ، فتفرح الملكة لهذه الرغبة فى الشفاء وتحببه أنها عثرت على الدواء المطلوب ، وأن هذا الدواء هو أن يشرب من ماء النهر ، فيتم الملك ويسود الى حزنه ويأسه ، لأنه كان قد ظن أن الملكة قد اهتدت الى دواء لشفاء جنونها ، ويخرج صارخاً بوزيره أن ينجده . أما الوزير الذى كان فى خارج القصر فيدخل على الملك فى تلك اللحظة وهو يرتجف من الخوف ويخبره أن جميع الناس أصبحوا يمتقدون أن الملك ووزيره قد أصيبا بجنون ، أما هم فمقلداه ؛ فيدهش الملك لذلك أشد الدهش ويدور بينه وبين وزيره الحوار الآتى :

الملك : صه ! من قال هذا الهراء . . . . ؟

الوزير : تلك عقيدتهم الآن

الملك : ( في حكم حزين ) نحن المصابان وهم العقلاء . . . . !

أيتها السماء رحماك ! إنهم لا يشمرون أنهم قد جنوا

الوزير : صدقت

الملك : يحيل إلى أن المجنون لا يشعر أنه مجنون

الوزير : هذا ما أرى

الملك : إن الملكة واحسرتاه كانت تحادثني الآن وكأنها

تعقل ماتقول ، بل لقد كانت تبدي لي الحزن ونسدى إلى النصح

الوزير : نعم نعم . . . كذلك صنع بي كل من قابلت من رجال

القصر وأهل المدينة

الملك : أيتها السماء رفقاً بهم !

الوزير : ( في تردد ) وبنا . . . ؟ !

الملك : ( متسائلاً في دهشة ) وبنا . . . ؟ !

الوزير : مولاي . . . لاني . . . أريد أن أقول شيئاً

الملك : ( في خوف ) تقول ماذا ؟

الوزير : إني كدت أرى

الملك : ( في خوف ) ترى ماذا ؟

الوزير : أنهم . . . كل شيء

الملك : من هم ؟

الوزير : الناس المجانين . إنهم يرموننا بالجنون ويتهامسون

علينا ويتآمرون بنا ، ومهما يكن من أمرهم وأمر عقلم فان الغلبة

لهم ، بل إنهم هم وحدهم الذين يملكون الفصل بين العقل والجنون .

لأنهم هم البحر وما نحن الاثنتان إلا جبتان من رمل . . . أسمع

منى نصحاً يا مولاي . . . ؟

الملك : أعرف ما تريد أن تقول

الوزير : نعم هلم نصنع مثلهم ونشرب من ماء النهر !

الملك : ( ينظر إلى وجه الوزير ملياً ) أيها السكين ! إنك قد

شربت . أرى شعاعاً من الجنون يلعب في عينيك

الوزير : كلاً لم أفعل بمد

الملك : أصدقني القول

الوزير : ( في قوة ) أصدقك القول اني سأشرب . وقد

أزعمت أن أصير مجنوناً مثل بقية الناس : إني أضيئ ذرعاً بهذا

العقل بينهم

الملك : تطيء من رأسك نور العقل بيدك !

الوزير : نور العقل ! ما قيمة نور العقل في وسط مملكة من

المجانين ؟ ثقب أنا لو أصررنا على ما نحن فيه لانا من أن يثب علينا

هؤلاء القوم . إني لأرى في عيونهم فتنة تضطرم ، وأرى أنهم ان

يلبثوا حتى يصيحوا في الطرقات « الملك والوزير قد جننا .

فلتخلع المجنونين »

الملك : ولكننا لسنا بمجنونين

الوزير : كيف تعلم ؟

الملك : ويحك . . . أتقول حقاً ؟

الوزير : إنك قد قلتها الساعة يا مولاي : إن المجنون لا يشعر

أنه مجنون

الملك : ( سائلاً ) ولكنني عاقل وهؤلاء الناس مجانين !

الوزير : هم أيضاً يزعمون هذا الزعم

الملك : وأنت ألا تمتد في صحة عقلي ؟

الوزير : عقيدتي فيك وخدها ما نعمها ؟ إن شهادة مجنون

لمجنون لا تغني شيئاً

الملك : ولكنك تعرف أني لم أشرب قط من ماء النهر

الوزير : أعرف

الملك : وأن الناس كلهم قد شربوا منه

الوزير : أعرف

الملك : وإني قد سلطت من الجنون لأنني لم أشرب وأصيب

الناس لأنهم شربوا

الوزير : هم يقولون إنهم إنما سلموا من الجنون لأنهم شربوا

وأن الملك إنما جن لأنه لم يشرب

الملك : عجيباً ! إنها لصفاقة وجه

الوزير : هذا قولهم وهم المصدقون . وأما أنت فلن تجد

واحداً بصدقك

الملك : أهكذا يستطيعون أيضاً أن يجترئوا على الحق ؟

الوزير : الحق ؟ ( يضحك )

الملك : أنتضحك ؟

الوزير : إن هذه الكلمة منا في هذا الموقف غريبة

الملك : ( في رجفة ) لماذا ؟

لجبروته محبوباً لحكمته - وكان في وسط تلك المدينة بئر ماء نقي عذب يشرب منه جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فنادون ، لأنه لم يكن في المدينة سواه . وفيها الناس ينعم في إحدى الليالي جاءت ساحرة إلى المدينة خلصة ، وألقت في البئر سبع نقط من سائل غريب ، وقالت : « كل من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً »

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر وجثوا على نحو ما قالت الساحرة ، ولكن الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حي إلى حي ، ومن زقاق إلى زقاق ، وهم يتسارون قائلين « قد مجن ملكنا ووزيره . إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما . إننا نأبى أن يملك علينا ملك مجنون . هيا بنا نخلمه عن عرشه ! »

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى ، فأصر على الفوز بأن يملأ حق زهمي ( كان قد ورثه عن أجداده ) من مياه البئر . فلأوه في الحال وأحضره إليه . فأخذه الملك بيده وأداره إلى فيه . وبعد أن ارتوى من مائه دفنه إلى وزيره فأتى الوزير على ثمالة فمرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً ، لأن ملكهم ووزيره نأيا إلى رشدهما «

فما رأى القاريء اللبيب في هذا . . . ؟ وما رأى الأستاذ الفاضل فيما كتب . . . ؟ أليس هناك تشابه تام بين القصتين في الفكرة والتمثي والأشخاص بل وفي بعض الألفاظ . . . ؟

أني مع احترامي الشديد وتقديري العظيم للكاتب الفنان ، أرى في ذلك أحد أمرين : إما أن تكون الفكرة مأخوذة مما كتبه المرحوم جبران خليل جبران ، وليس في هذا حرج ، ولكن كان الأجدر بالكاتب في هذه الحالة أن يذكر اسم المؤلف الذي أخذ عنه تلك الفكرة ، وله بعد ذلك الفضل في تقريبها إلى الأذهان بصوغها في قالبه الخاص الرائع ، وفي تحويلها من حكاية قصصية إلى قصة تمثيلية

وإما أن يكون ذلك من قبيل توارد الخواطر وتشابه الأفكار بين كاتبين مختلفين في زمنين متقاربين ، وليس في هذا أيضاً من حرج . . . ولكن دعني ألا أعتقد به هنا قبل أن تأتيني بجمعة من ماء ذلك النهر في حق من ذهب أو إناء من خزف ما

جورج وغربس

أسكندرية

( الرسالة ) هناك فرض ثالث وهو أن يكون مصدر الكاتبين واحداً

الوزير : الحق والعقل والفضيلة كلمات أصبحت ملكاً لهؤلاء الناس أيضاً . هم وحدهم أصحابها الآن

الملك : وأما . . . ؟

الوزير : أنت بمفردك لا تملك منها شيئاً  
( الملك يطرق في تفكير وصمت )

الملك : ( يرفع رأسه أخيراً ) صدقت إلى أرى حياتي لا يمكن أن تدوم على هذا النحو

الوزير : أجل يا مولاي . وإنه لمن الخير لك أن تعيش مع الملكة والناس في تفاهم وصفاء ولومنحت عقلك من أجل هذا ثمناً  
الملك : ( في تفكير ) نعم إن في هذا كل الخير لي . إن الجنون يعطيني رغد العيش مع الملكة والناس كما تقول . وأما العقل فماذا يعطيني . . . ؟

الوزير : لا شيء . . . انه يملك منبوذاً من الجميع مجنوناً في نظر الجميع

الملك : إذن فمن الجنون ألا أختار الجنون

الوزير : هذا عين ما أقول

الملك : بل إنه لمن العقل أن أوتر الجنون

الوزير : هذا لا ريب عندي فيه

الملك : ما الفرق إذن بين العقل والجنون

الوزير : ( وقد بوغت ) انتظر . . . ( يفكر لحظة ) لست أتبين فرقاً

الملك : ( في عجلة ) على بكأس من ماء النهر

\*\*\*

هذا مجمل القصة والجزء المهم من الحوار الذي دار بين الملك ووزيره ، وإنهيا منه بأن العقل لا يفهم شيئاً في مملكة من المجانين ، لذلك آتوا أن يكونا منهم . وموضوع القصة - كما ترى - لطيف طريف ، وليس في هذا مجال لشك أو موضع لغرابية ، ولكن مما استرعى نظري أنني كنت أقرأ بدايتها قراءة الشاعر بما سيحدث في نهايتها ، فما أتيت على آخرها حتى ظلمت أفكر فيمن سمعت أو قرأت عنه تلك القصة حتى هداني التفكير إلى كتاب « المجنون » للمرحوم جبران خليل جبران فعمرت فيه على قصة قصيرة تحت عنوان « الملك الحكيم » وقبل أن أقول عنها شيئاً أورد نصها فيما يلي :

« كان في إحدى المدن النائية ملك جبار حكيم ، وكان مخوفاً